

المستقبل للإسلام^(١)

العلم والفلسفة يبيّنان العقول والقلوب لقبول الإسلام ديناً عالمياً

ربما خيّل لمن لا يعرف الإسلام أن هذا إعلان جرىء، ولكننا نعتقد أنه متى عرفه فسيقرنا عليه، فكل ما علينا الآن أن نقيم عليه الدليل.

نعم، إن العالم بفضل تحرره من الوراثة والتقاليد، وإمعانه في النقد والتحصيل، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام بخطوات مترنة ثابتة، لا توجد قوة في الأرض تردده عنه، إلا إذا انخل عصام المدنية، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية. هذا لإجمال يعوزه البيان، فإليك:

قُذِفَ بالإنسان إلى هذا العالم جاهلاً به غاية الجهل، غمياً عن أسرار كل العماية، ولولا أن خالقه جل شأنه أوجده حيث الماء والنبات، لمات ظمأً وسعياً؛ ولولا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرب من الضواري التي كانت تتعقبه، ويحتجى من العوارض الطبيعية التي كانت تنصبّ عليه، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة. ولكنه وهبه عقلاً ليس لسلطانه حد يقف عنده، فأخذ يستهدى بنوره يسيراً يسيراً؛ حتى استطاع أن يأمن شر العوادي، وأن يجتمع على أمثاله، وأن يكشف أوليات العلم، ومبادئ الحكمة. ثم ما برح يرقى حتى أسس الأمصار، وأوغل في المعارف، وسخر قوى الكون، وسبر مساتير الوجود، واخترع الآلات المعجبة، وهو اليوم يحدث نفسه بالصعود إلى الكواكب، وكشف عالم الروح، والتحكم في نواميس الحياة.

هذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل، ولكن الذي يحتاج لتنبيه هو أن الإنسان فوق كل ما يحصله من علم، وما يكشفه من مستور، يزداد معرفة

(١) طلب إلينا أن ندلى بأقوى ما نملك من حجج في موضوع أن المستقبل للإسلام، ففعلنا، ولم نشأ أن نقصر انتشار هذا البحث الجامع على عدد محصور من القراء، فرأينا أن نعمم إذاعته بنشره في مجلة الأزهر ليكون إلى جانب نظائره مما تقوى به حجة الإسلام في هذه المجلة.

بما يجب أن يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الآداب القويمة ، وما ينبغي أن يقيمه لتوثباته من المثل الأعلى للإنسانية الصحيحة .

في أثناء تمشى الإنسان في هذه السبيل الأدبية ، تحت ضوء العلم والفلسفة ، تسقط في نظره الواحدة بعد الأخرى ، جميع الأوهام الموروثة ، والتعصبات التقليدية ، فيرى الخضوع لها عاراً عليه ، وسقوطاً لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة في أقصى ثنياه ، عاداً ذلك من متممات وجوده الأدنى .

فكون النتيجة الحتمية من وراء هذه المحاولات الثقافية في هذه الناحية ، تأسس الأصول الآتية :

(أولاً) زوال آثار الوراثة الدينية .

(ثانياً) انمحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

(ثالثاً) قيام النظر العقلي مقام التقليد الأعمى .

(رابعاً) قبول كل عقيدة تسلم من النقد وتنهض بها حجة .

(خامساً) الميل إلى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم ، والجماعة لإياها شيعاً .

(سادساً) الاتجاه إلى نصب العلم فاروقاً بين الحق والباطل ، بغير اعتداد برأى أيه طائفة من الطوائف ، أو فرد من الأفراد .

هذه الأصول الستة لا محيص من تولدها كثمرة طبيعية للثقافة العصرية . وقد تولدت فعلاً وصارت جزءاً من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصبح عنصراً رئيسياً من عناصر العقلية الأوروبية إلا أن تنتشر فيها المبادئ الفلسفية ، وهى لا تزال بعيدة عن الدماء لأسباب اقتصادية ، ولكن لا بد من بلوغها هذه المنزلة بعد قرنين أو ثلاثة قرون .

فإذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعقل ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر فى الأديان التى يعتبرها إذ ذاك بقايا أثرية ، للعقلية البشرية ، تبين له أنه فى صميم الإسلام ، وأنه فى جهاده العلمى الطويل كان يعمل لإقامة دولته ،

وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس المعطلة .

فكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَخْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَتَّخَلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيَحْكُنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (١) الآية . وقد كانوا يعبدون الله سرا ويخشون أن يخطفهم أعداؤهم ويمزقوهم شذر مذر ، فأتاهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهرا على الأديان كلها ، كذلك ستصدق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيرى الناس آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

وقد ظهرت بوادر هذا الانقلاب في أقوال الكثيرين من أقوال علماء الغرب ، وقد رأى بعضهم ومنهم (برنارد شو) أن أوربا قد لا يمضي عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الإسلام دينا .

أى شيء يعتبر في حكمه هذا بعيدا عن العقل ؟ أليست الأصول الستة التي أثبتناها هنا ، وهى أخص أصول الدستور العلمى ، هى نفسها أخص أصول الإسلام ، بل هى معناه وروحه ، والموجب لجعله دينا للعالمين كافة فى كل زمان ومكان ؟

لقد كلف الإسلام كل داخل فيه أن يكون متجردا من كل ما يربطه بالماضى من دين ووراثة وتقليد ووهم وخيال ؛ وأن يقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ورأى سابق ، على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فإذا تمت له هذه التصفية ولقن أمور الدين ، أمر أن يتعقلها وأن ينظر فى أدلتها ، ونهى أن يأخذ بها تقليدا مهما كانت مكانة الرجل الذى يقلده ؛ وكلف

(١) سورة النور : ٥٥ .

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

أيضا أن يتأمل فيما نصبه الله في الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة المتبع لأسرار الخلق ، مخضعا كل ما يحصله لأدق أساليب التحصيل والتحليل ، حتى لا يتورط في الأخطاء فيضل ويضل ، وهو مسئول عن كل ما يستخدمه في هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ومحاسن حتى على جيئات خواطره . وإنا لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فإليك :

قال الله تعالى في ماهية الدين الحق : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) . وقد شرح النبي ﷺ هذه الفطرة فقرر أنها مثل الحالة التي يكون عليها الطفل ساعة ميلاده : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . أى أن كل مولود يولد على الدين الحق المطلق « الإسلام » ولكن أبويه ينقشان في عقله من الصور ما يغيران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى في ذم الظنون والأوهام : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ^(٢) . وقال ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى في النهي عن اتباع الهوى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٤) . وقال في وجوب إقامة سلطان العقل : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وكرر ذلك في آيات كثيرة بألوان مختلفة عشرات من المرات .

وقال في ذم الذين لا يعرفون للعقل حقه : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) سورة يونس : ٦٦ .

(٣) سورة يونس : ٣٦ .

(٤) سورة ص : ٢٦ .

أَلْبِكُمْ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ . وقال : ﴿ صُمُّ بَكُمْ غَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) .
 وقال : ﴿ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) . وقال : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا
 نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ
 السَّعِيرِ ﴾ (٤) .

وقال تعالى في المسؤولية الشخصية ، وفي عدم جواز الاعتماد على الغير :
 ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٥) . وقال : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى *
 وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴾ (٦) . وقال : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا
 لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ (٧)
 (أى فداء) .

وقال تعالى في ذم التقليد الأعمى : ﴿ وَقَالُوا (أى يوم القيامة) رَبَّنَا إِنَّا
 أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ (٨) . وقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا (أى
 يوم القيامة) مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ
 اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّعُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ
 عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (٩) .

وقال تعالى في وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفي النعى على
 الذين يعتقدون تقليدا بغير حجة : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ

(١) سورة الأنفال : ٢٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٨ .

(٣) سورة يونس : ١٠٠ .

(٤) سورة الملك : ١١، ١٠ .

(٥) سورة المدثر : ٣٨ .

(٦) سورة النجم : ٣٩-٤١ .

(٧) سورة البقرة : ٤٨ .

(٨) سورة الأحزاب : ٦٧ .

(٩) سورة البقرة : ١٦٦، ١٦٧ .

فَأَنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴿١﴾ . وقال في وجوب تقاضى الدليل من كل صاحب قول : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وقال في تسفيه أحلام الذين يجمدون على ما ورثوه من آبائهم من الأباطيل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٤) .

هذا دستور ديني جاء به محمد ﷺ في زمن لم يكن فيه لدستور أيًا كان نوعه دولة في الأرض ، لا من الناحية السياسية ، ولا من الناحية العلمية ؛ أما من الناحية السياسية فقد كان لا يعرف أحد أن للحكومة دستورا قط . فكان الناس من هذه الناحية غرقى إلى يافخهم في حكومة الفرد لا يعرفون لهم حقوقا ، ولا وجودا معها .

أما أمر الدين فقد كان دستوره عندهم : « اعتقد وأنت أعمى » كما قاله العلامة لاروس في دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج الدليل ، فعبارات كانت تجر إلى النار المحرقة في تنانير كانت أعدت لذلك .

جاء محمد ﷺ بذلك الدستور الديني ، وهو القرآن ، والناس قاطبة على ما وصفنا من العمايات المترابكة بعضها فوق بعض ، وقد جمدوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملازما لهم لا يتصورون الحياة على حال غيره ، بل لا يحبون أن يسمعوا داعيا يدعوهم إلى نقيضه ، وإذا أقدم على ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قالوه للنبي ﷺ حين دعاهم إلى النور فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٥) . وقالوا : ﴿ إِنَّا لَنَنظَرُكَوَا إِلَهِتِنَا لَشَاعِرٍ مُّجْنُونٍ ﴾ (٦) .

(١) سورة المؤمنون : ١١٧ .

(٢) سورة النمل : ٦٤ .

(٣) سورة البقرة : ١٧٠ .

(٤) سورة الزخرف : ٢٢ .

(٥) سورة الحجر : ٦ .

(٦) سورة الصافات : ٣٦ .

فرد الله عليهم بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرَهُونَ ﴾ ^(١) .

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهي في البقعة الفسيحة من الأرض التي استولى عليها المسلمون في أول الإسلام ، هي دخول أم برمتها فيه ، بغير إجبار ، بل بغير دعاية منظمة ، والعقول لم تكملها العلوم ، والنفوس لم تصقلها الشكوك ، فماذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الإسلام حق معرفته ، وتبين الناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمي فحسب ، ولكن أصوله الأولية هي ذلك الدستور نفسه ، بالغاً أكمل ما يمكن أن يصل إليه من السمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لا تغفل منه حتى همسات السرائر ، وحركات الضمائر : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ^(٢) .

العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم في الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يعد يخطر بها بباله ، وقد محض نفسه للبحوث المادية ، وتمخير قوى الكون لحياته الدنيوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول . فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها . فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فإليك ما كتبه الأستاذ (هنرى بيرانجييه) في المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، قال :

« إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال :

« إذا كان النقد التاريخي قد حطم اليوم كل الأشكال المتحجرة في الأديان ،

(١) سورة المؤمنون : ٧٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٤ .

فإنه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية ، بل اعترف باستمرارها وشيوعها في كل دور من أدوار التاريخ ، ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنه . ففى كل جهة وكل زمان قد شوهدت حاجة الإنسان إلى الدعاء والعبادة والتضحية ، فى أخس الأديان الوثنية ، كما فى أرق المذاهب الروحانية . هذه هى الشرارة البسيكولوجية (أى النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان . فمن المحال أن يطفئها ، ولكنه سيقلها إلى المستقبل . »

ثم قال :

إننا نأمل الوصول إلى حل المسألة الدينية ، وبخاصة لأن الديانة الفطرية (أى الطبيعية) قد ولدت منذ مائة عام ، ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . فجان جاك روسو ولمرتير ولامنيه وميشيليه وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا إرنست رينان وجيو وشوريه وساباتيه قد أمدوها بقوة عظيمة جديدة » انتهى .

نقول : ما هى هذه الديانة الطبيعية التى يعتقد كبار المفكرين فى الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلية ؟

إننا نأتيك بها على لسان أحد كبار أشياعها ، وهو الفيلسوف الفرنسى (كارو) ، فقد قال فى كتابه : (البحوث الأدبية على الزمان الحاضر) ما يأتى :

« أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها . وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنسانى ، ووجود روح للإنسان متصفة بالإدراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمدا لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بإرادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله بإخلادها إلى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعة

الموت بالزهادة . وأخيرا الاعتراف بناموس الترقى . ولكن بدون فصل ترقى الإنسان في مدارج السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة » اهـ .

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين ، غير محاولة الرجوع لدين الفطرة ، تحت تأثير حوافز من أنفسهم ، ومن تجلى آيات الله لهم ، في الآفاق المحيطة بهم ، مصداقا لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى (أى الطبيعى) آت لا محالة باعتبار أنه دين عالمى للبشر كافة بحكم العلم نفسه . والدين الفطرى هو الإسلام بنص كتابه ، وبموجب أصوله . فإذا آنس الناس تلكوا في التمشي إليه فذلك أمر طبيعى ، لأن أكثر الناس عوام يجمدون على ما ورثوه ، ويستحيون في تأييده وإن كانوا لا يعقلونه ، ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلا فجيلا تطهيرا لها من الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة ، والحقائق في الوقت نفسه تزداد ذيوعا بينهم ، فلا يزال الأمر جاريا على هذه الوتيرة حتى لا يبقى في الناس من يعتقد فيما لا يعقل ، وإذ ذاك تحمل الروح الاسلامية في العالم بكل ما قامت عليه من أصول عقلية ، ومبادئ علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمى يتمناه المصلحون في العصر الحاضر .

في ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالأستاذ (هنرى بيرانجيه) المتقدم ذكره أن يقول : « لما كانت الأديان ليست بشئ غير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستلاشى عاجلا أو آجلا ككل الآثار الانسانية ، ولكن تلك العاطفة لن تتلاشى أبدا إلا مع الانسان نفسه » .

نعم لا يستطيع أن يقول ذلك ، لأنه يجد الدين الأخير منها هو تلك العاطفة نفسها ، كما ينص عليه كتابه في قوله تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبدل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ، ويجد أن كل ما تستدعيه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات مشروط فيه الرجوع به إلى حكم العقل والعلم ، لا إلى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير وترقى ، فهو في شرعة هذا الدين الفطرى دين . وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدنل ، فهو في شرعته كفر .

هذا هو الدين الذى جاء به محمد ﷺ دينا عاما للبشر كافة . فهل تجد محيصا للبشر عنه ؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه ، والعقل نبراسه ، والعلم مادته ؟ وهل للبشر محيص عن هذه الثلاثة الأصول الطبيعية مهما حاولوا ذلك وتكلفوه ؟ فإن كان فى العالم أصول كلما أُمعنت فى البعد عنها ، ازدادت قربا منها ، فهى الفطرة والعقل والعلم .

وهذا كله معنى قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيَّرُ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (٢) .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٤) (٥) .

* * *

(١) سورة آل عمران : ٨٣-٨٤ .

(٢) سورة النساء : ١٧٤-١٧٥ .

(٣) سورة الصف : ٨ .

(٤) سورة سبأ : ٦ .

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، صفحة ٢٨٩ ، سنة ١٣٥٩ هـ .

العوامل الأدبية التي اعتمد عليها الإسلام في تقويم الشخصية الإنسانية بسرعة لم يعهدها البشر

المعلوم من التاريخ بالضرورة ، أن الإسلام نشأ في شبه الجزيرة العربية ، فأخى في سنين معدودة بين قبائلها المتضاغنة ، وآلف منهم أمة ؛ وحلّى تلك الأمة بالرُّبط الأدبية والمادية التي لا بد منها لكل بنية اجتماعية ، وأحاطها من الحواظف الذاتية بما صان وجودها ، في جميع ما طرأ عليها من أدوار الانتقالات والانقلابات ، سليما قويا ؛ وأودع كيائها من بواعث التطور ما دفعها للترقى في جميع مجالات النشاط العلمى والعملى ، خالصة من جميع القيود التقليدية التي تعطل من انتقال الجماعات ، وتبطئ من سيرها ، فوصلت في نحو قرنين إلى مستوى رفيع حصلت معه على الزعامة العالمية . وهى ميزة لم تُمنحها إلا أُمم معدودة في الأرض .

وصلت إلى هذا الأوج في حُطى متزنة ، وتدرج محكم ، ونظام مدبّر ومُثلّ عليا ، شأن كل جماعة تصدر عن ذخّر أدبى متأصل في طبيعتها ، أو تَمَرّست به أجيالا متعاقبة من حياتها .

فإذا كان هذا الحادث الفذ في تاريخ البشر يعتبر صعب التعليل بالأسباب المعروفة ، فلا يقل عنه في صعوبة التعليل تأثيره طفرة في جماعات مفككة الأوصال لم تعتد النظام ، ولم يعمل فيها ناموس التطور منذ أجيال ، ولم تعرف قبائلها الوحدة منذ وجودها ، ولم يُؤثر في تاريخها أن داعيا دعاها إليها في عهد من عهودها .

ومما يكسب هذا الحادث الجلل مظهرا ممتازا ، أنه كان مصاحبا لسمو لم تشهده البشرية من قبل ، في أخلاق القائمين به وآدابهم ، وتطور لم يكونوا قد وصلوا إليه ولا الإنسانية أجمع ، في أصولهم ومبادئهم . فإذا كان الناس قد عهدوا أن الانقلابات العالمية الكبرى أول ما توجد طائشة هوجاء ، تثور ثوران الزوبعة لا تفرق في هبوبها المفرط بين ما يجب تحطيمه وما يجب الإبقاء عليه ، في طغيان

من القائمين بها ، لا ترددها حكمة ، ولا ترددها شكيمة ، فإن الانتقال الذريع الذى أحدثه الإسلام ، رافقته رحمة بالمقهورين ، وعطف على المستضعفين ، وأمان للخائفين ، وإنصاف للمظلومين ، واحترام لعقائد المخالفين ، كأنه حركة مدبرة فى مهلة طويلة من التروى والتفكير ، أو خطة مقررّة دُرست مقدماتها ونتائجها فى مَلَاوة من الزمان صُرفت فى الحسبان والتقدير ؛ وليست الحركات العادية للجماعات فى شيء من هذا ، كما تدل عليه الانقلابات الكبرى التى مرت بالإنسانية فى عهدها الطويل بالوجود ؛ والانقلابات التى يكون مصدرها بلاد العرب ، أبعد البيئات عن النظام ومراعاة الأصول ، أولى أن تكون على مثال جميع الانقلابات العالمية التى سبقتها من هذه الناحية .

فصدور أكبر انتقال فى العالم الإنسانى ، فى بيئة لا عهد لها بمثله ، بل ولم تشارك العالم فى غيره ، على ما رأيت ، منظما مقدرا ، ومصاحبا لأعظم انقلاب أدى لم يصل إليه النوع الإنسانى بعد ، يجب أن يكون موضوع دراسات عميقة على ضوء العلوم الاجتماعية والنفسية ، وقد قطعت هذه العلوم شوطا بعيد المدى فى تفلية الحوادث ، وتعقب تطوراتها ، للوصول إلى أبعد مناشئها ، وتحليل الحالات العقلية ، وتتبع أدوارها ، لوجدان بواعث صدورها ؛ فإذا أنجحنا فى ذلك أطرفنا العالم بمجديد من البحوث لا تقف دعايته للإسلام ، ودلالته على معجزاته عند حد .

مواطن التأثير فى النفس البشرية :

لا يتأتى أن تقوم دعوة فى الأرض إلا إذا حلت مواطن التسليم من بعض النفوس ، وهذا التسليم حكم عقل لا معدى عن الخضوع له .

فمواطن التأثير بالدعوات هو العقل ، لذلك تَعَقَّبَه أصحاب النحل ، وحاولوا النقص من سلطانه على ضروب شتى ، أهمها زعمهم أن ما هم بصدده من العقائد يعلو متناول العقل ، فيجب أن يسلم به بدون عرضه عليه ؛ ويفوتهم أنهم لو كانوا مصيين فيما يقولون لوجب الأخذ بجميع العقائد المناقضة لأحكام العقل ، لعدم وجود المرجح لأقربها إلى الحق .

ومن شبهاتهم على سلطان العقل ، أنه لم يصل إلى كماله بعد ، فما يقرر حقيقته

اليوم ، وهو فى درجة من التطور ، ينقضه متى اجتاز تلك الدرجة ، وربما عاد إلى ما كان نقضه من قبل .

قالوا هذا ، وفاتهم أن المراد بسلطان العقل ما حُمِّلَه بفطرته من العلم الضرورى بجواز الممكنات ، وطلب الدليل على وقوعها ، واستحالة المستحيلات البدئية ، كاجتماع النقيضين ، ووجود الشئ فى مكانين الخ ، وهذه الأصول الأولية عامة فى جميع أفراد النوع البشرى لا تتخلف فى بعض آحاده إلا لعلة عقلية ، فيرتفع التكليف عن أصحابها بتخلفها .

فهذا السلطان الفطرى للعقل كاف فى حمايته من الضلال فى أصول المعتقدات ، وهو مناط التكليف ، وموطن المؤاخذة .

هذا هو المراد بسلطان العقل ، لا أن يكون قادرا على خوض غمرات البحوث المختلفة ، وإدراك مراميها البعيدة ، وبناء النظريات المجردة ، وإقامة أدلتها ، والترجيح بينها الخ الخ ، مما لا ينال إلا بتحصيل علوم كثيرة ، لا تتسنى إلا لأفراد ينقطعون لها سنين طويلة .

فإذا أقام الناس سلطان العقل الفطرى ، لم يستطع أصحاب الأهواء أن يسمموا نفوسهم بالعقائد الضالة .

العوامل التى تمكن بها المضللون من هدم سلطان العقل :

مع قيام سلطان العقل الفطرى بين الناس ، وترتيبهم أعمالهم الدنيوية عليه ، استطاع المضللون هدم هذا السلطان فيما يتعلق بالعقائد الدينية ، فكان ذلك سببا فى فساد نفسياتهم ، وطول أمد جاهلياتهم ، حتى صار مألوفا أن الأمم التى تقع فى التحجر الاجتماعى لا تنجو منه إلا بثورة على عقائدها تقلبها رأسا على عقب .

وإنما نجح المضللون فى هدم سلطان العقل الفطرى ، باعتمادهم على جهل الجماعات التى تبلى بهم ، وبالهائها بالخيالات والأوهام ، وبالتذرع فى إخضاعها لها بوسائل الإرهاب ، وهذه العوامل الثلاثة إذا اجتمعت فلا تقوى الجماعات الساذجة على مقاومتها ، فتستخذى لها ، وتقبل من رؤساء دينها كل ما يلقنونها إياها من التعاليم

وإن جافت حكم العقل ، لأنها جردته في هذه الناحية من سلطانه فلا يكون له سبيل إليها ، وإذا طاف برأسها خيال منه طردته من مجاله ، واعتبرت ذلك من نفسها تورعا ، واستمرت على هذه الحال حتى تحفزها المثالات إلى الحركة ، فتهب من سباتها ، وأول ما تخلعه من عنقها باعتبار أنه سبب جمودها ، نير الدين ، الدين الذي ألفتة الأوهام ، لا الدين الفطرى الذى جُبلت عليه كل نفس بشرية كما ستراه .

ما اعتمد عليه الإسلام في بناء صرح الدين الخالد :

اعتمد الإسلام في بنائه صرح الدين العام الخالد على العقل والفطرة ، وهما الركنان الطبيعيان اللذان تقوم جميع الشؤون الانسانية عليهما ، فلم يبق الدين بذلك بمعزل عن حياة الإنسان ، يعتريه من الجمود والتحجر ما يعترى الأصول الموقوفة ، ولكنه جعله في دائرة محاولاته يترقى في إدراك أسرارها ، واستشراف أنوارها ، كما يترقى في فهم الوجود الذى يعيش فيه ، وفى تحصيل العلم الذى يتعرف به ، فأصبح الإسلام بذلك عند الآخذين به عنصرا سائدا على نفسياتهم ، بقدر ما للعقل والفطرة من سيادة عليها .

ولما كان الإنسان أشد وأسرع ما يكون انقيادا للشيء إذا وافق عقله وفطرته ، وكان الإسلام من هذه الناحية حاصلا على هذه الميزة بقيامه على العقل والفطرة معاً ، وهو ما دل عليه كتابه ، فقد انتشر ما بين حدود أسبانيا الغربية بأوروبا ، إلى حدود الصين الشرقية بآسيا ، وشمال أفريقيا كله ، في نحو قرن من الزمن ، ودخل فيه نحو مائة مليون من النفوس ، منها أم برمتها قبلته ديناً لها بلا دعوة منظمة ولا إجبار . وهذا حادث عالمي فذ يجب درسه ، وتُعرف ما يهذى إليه العلم من عجائبه .

هذا هو السبب الرئيسى فى تسارع الناس إلى قبول الإسلام ، وفى شدة تمسكهم به ، وتحمسهم له ، وبذلهم المهج رخيصة فى سبيله . ونحن فى دراستنا للإسلام من ناحية سرعة تطويره للشخصية الإنسانية ، وشدة تأثيره فيها ، سنسير تحت ضوء الركنين اللذين امتاز بهما ؛ والله نسأل أن يجعل السداد رائدنا فى هذا الموضوع الخطير ، الذى نرجو أن يكون تأثيره عميقاً فى نفوس الشباب المتعلمين (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ص ١٥٢ . سنة ١٣٥٩ هـ .

ما أفاده الإسلام للمدنية

شهادات لا يمكن التماهى في صحتها

لقد أفاد الإسلام العالم كله من الناحيتين الدينية والمدنية إفادة يتعذر تقديرها ؛ وليس المسلمون بحاجة لأن تبين لهم وجوه الإفادة الدينية ، فإن ما يعلمونه من سلامة عقائدهم ، وأصالة أصولهم ، وما أبيح لهم من حرية الفكر والنظر ، والاعتماد على العقل وأعلام الوجود ، لا تدعهم يشكّون في أن دينهم سن للناس كافة سنة لا يحصى لهم عن القيام عليها . فإن ظهر أن كثيرا منهم لا يزالون يتحامون الجرى عليها ، فسيضطّروهم الترقى العلمى والفلسفى إلى الاعتراف بحقيقتها ، وإذ ذاك يلتقى الناس كافة في حظيرة واحدة هى حظيرة الإنسانية الموحدة تحت علم الدين الفطرى والمعارف المُمحصّة .

أما من الناحية المدنية فقد شهد العالم كله بأن المسلمين حفظوا التراث العلمى العالمى ، وتولوه بالزيادة والتحصيل ، وطبقوه على حاجات الحياة الإنسانية ، فأوجدوا بذلك مدنية ليس فى العالم اليوم من يدعى أنه ليس مدينا للإسلام من هذه الناحية .

قد استشهدنا على صحة هذه الدعاوى بجماهير من كبار المؤرخين والعلماء الأوربيين ، وآخر ما وصل إلينا عنهم فى هذا الباب كتاب حضارة العرب للعلامة الاجتماعى جوستاف لوبون وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ النابه محمد عادل زعيتر . ونرى أن نقتبس منه بعض ما قاله العلامة الاجتماعى المذكور فى هذا الشأن ليتدبره المسلمون ، ويعرفوا أن ما قصرُوا فيه من بيان هذا الحق ، قد قام به من منصفى الغربيين من لا يمتون إليهم بأقل صلة .

قال العلامة جوستاف لوبون تحت عنوان (تمدين العرب لأوربا - تأثير العرب فى الشرق والغرب) :

« خضع الشرق لكثير من الشعوب كالفرس والإغريق والرومان الخ ، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسى ، إذا كان عظيما فيه ، فإن تأثيره المدنى فيه كان ضعيفا للغاية .

« وما عجز الأغريق والفرس والرومان عنه ، قدر عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه .

« وما وفق العرب له في مصر اتفق لهم مثله في كل بلد خفقت فوقه رايتهم كأفريقيه (يريد تونس) وسورية وفارس . وقد بلغ نفوذهم بلاد الهند التي لم يدخلوها إلا عابري سبيل . وقد كان لهم تأثير واضح في بلاد الصين التي لم يزورها إلا تجاراً .

« ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ، ولو حيناً من الزمن .

« ولم يتجل تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها ، بل كان لهم الأثر البالغ في ثقافته العلمية أيضاً . وقد نقل العرب إلى الهند والصين أثناء صلاتهم بهما قسماً كبيراً من معارفهم العلمية التي عدها الأوروبيون على غير حق من أصل هندي أو صيني .

« ويظهر أن ما اقتبسه الصينيون من العرب أهم مما أخذته الهنود عنهم ، وقد رأينا في فصل سابق أن علوم العرب دخلت الصين على أثر الغارة المغولية ، وأن الفلكي الصيني الشهير كوشو كينغ تناول في سنة (١٢٨٠) م ، رسالة ابن يونس في الفلك وأذاعها في بلاد الصين ، وأن الطب العربي انتشر في الصين في سنة (١٢١٥) م ، وقتما غزاها كوبلاي .

« ثبت الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشرق ، وأن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها .

« ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبا حينما أدخل العرب الحضارة إليها . فإذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد حين كانت حضارة العرب الأندلسية في أوج نضارتها ، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يصرفون أوقاتهم

في أديارهم ليكشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة ليكون عندهم بذلك من الرقوق ما هو ضرورى لنسخ كتب العبادة .

« مضت مدة طويلة قبل شعور أوروبا بهمجيتها ، ولم يبد ميلها إلى العلم إلا في القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد ، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل عنهم ، ولوا وجوههم شطر العرب .

« لم تكن الحروب الصليبية سببا في إدخال العلوم إلى أوروبا كما يظن على العموم وإنما دخلت العلوم أوروبا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا ، ففي سنة (١١٣٠) م ، أنشئ في طليطلة مكتب للترجمة تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون ، فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغة اللاتينية أهم كتب العرب . وقد كللت أعمال ذلك المكتب بالنجاح فبدأ للغرب عالم جديد ، ولم يتوان العرب في أمر تلك الترجمة في القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر من الميلاد . ولم يقتصر في تلك القرون على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد الخ وحدها إلى اللغة اللاتينية ، بل نقلت إليها كتب علماء اليونان من ترجماتها العربية ، ككتب جالينوس وبقرات وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس وبطليموس ؛ وقد روى الدكتور (لوكير) في كتابه الذى سماه (تاريخ الطب العربى) أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية يزيد عن ثلاثمائة كتاب ، ولم تعرف القرون الوسطى كتب قدماء اليونان في الحقيقة إلا من ترجماتها العربية ، وبفضل هذه الترجمات اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أملها ، ككتاب أبولونيوس في المخروطات ، وكتاب جالينوس في الأمراض السارية ، وكتاب أرسطو في الحجارة الخ . وإذا كانت هنالك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اسم اليونان . فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة . قال المسيو (ليرى) : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون .

« إن عرب الأندلس إذن هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التى أهملت في كل مكان ، حتى في القسطنطينية ، ولم يكن في العالم

في ذلك الزمن غير الأندلس العربية بلاد يمكن طلب العلم فيها ، فألى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصراني القليلون لطلب العلوم ، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التي لا تزال موضوع جدال جريبت الذي صار بابا في سنة ٩٩٩ ملقبا بسلفستر الثاني ، ولما أراد هذا البابا أن ينشر في أوروبا ما تعلمه عد الناس ذلك من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه إلى الشيطان .

« وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوروبا نحو ستة قرون . ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام إلى الزمن الحاضر . فقد شرحت كتب ابن سينا في مونيليه في أواخر القرن الماضي . »

ثم قال الدكتور جوستاف لوبون :

« وإذا كان تأثير العرب عظيما في أنحاء أوروبا التي لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم ، فقد كان تأثيرهم أعظم من ذلك في البلاد التي خضعت لسلطانهم كبلاد إسبانيا ... ولن يرى الباحث مثالا أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى ، ولم يشتمل التاريخ على ما هو أبرز من هذا المثال . »

هذا ما يقوله العلماء الاجتماعيون الأوروبيون الذين لا يصح اتهامهم بالمبالغة والإغراق في أمر لا تعود منه عليهم ولا على أقوامهم أية مفخرة . ونحن إن نشرناه هنا كما نشرنا عشرات من مثله في تقدير تأثير أوائلنا في أحوال العالم الأدبية والمدنية ، فما ذلك إلا لندلل على أن في الإسلام روحا تبعث الآحاد والجماعات إلى الارتقاء لا يوجد ما يشبهها في التعاليم البشرية ، ولنا من وراء ذلك مطلب أكبر قيمة من هذا ، وهو أن نستفيد منه لنستعيد مجدنا القديم ومكانتنا العالمية الماضية ، وهو أمر لا سبيل إليه إلا بعملنا المتواصل لتجلية الإسلام في صورته الحقيقية باجتثاث جذور البدع المتفشية في جميع الشعوب الإسلامية ، وقطع دابر الآراء الضالة في الدين والدنيا والآداب العامة والخاصة ، والعمل في دؤوب ومضاء على توهين أصول الفلسفة المادية التي تعتبر أقوى عدو للأديان في العصر الحاضر ، ومن الله التوفيق (٥) .

(٥) مجلة الأزهر : المجلد السابع عشر ، ص ٣٩١ ، سنة ١٣٦٥ هـ .

مناعة الإسلام

لقد دل الإسلام على مناعة لا ترام في جميع أدوار تاريخه ، فاحتك بالأديان التي سبقته ، وقد كان يتولاها رجال بلغوا من الثقافة العلمية ما لم يكن له ظل في البيئة التي ظهر فيها الإسلام ، ومرتوا على الجدل مرانا طويلا الأمد في مجادلة الخصوم ، ومجادلة المبتدعة ؛ فلو لم يكن في الإسلام من عناصر العلب إلا ما تسمح به الأمية التي كانت عليها الأمة العربية ، والجاهلية التي كانت ضاربة بجمراتها فيهم ، لظهر ضعفه من أول مصادمة ، ولما اجتذب من صميم الديانات التي كانت عليها الأمم المتعدنة إذ ذاك ، رجالا كانوا في النوبة من ذويهم .

وقد أبان الإسلام أيضا عن مرونة بحيث كان يؤثر حتى في عقول الجماعات الطفلة ، فيجد طريقه إلى نفوسها من خلال حجب كثيفة من العادات والتقاليد والوراثات ، فيخلعها عنها بلباقة لا يُعرف لها سر ، ويحولها إلى درجة العقيدة الراسخة به ، على حين أنها كانت أعصى قيادا على دعاة الملل من الشعوب المتعلمة . ألم يتبار دعاة الإسلام ، وكلهم من التجار والمرزقة ، ودعاة الأديان الأخرى ، في مجاهل أفريقيا ، فكانت النتيجة أن دخل في الإسلام عشرات الملايين من النفوس ، وخاب مزاحموه خيبة أصبحت مضرب الأمثال إلى اليوم ؟

واليوم يُدعى الإسلام ليحرب نفسه مع العلم ، العلم الذي نعته دعاة الملل بأنه جبار عات ، ما صاول دينا إلا تغلب عليه ، وأجلاه عن أرضه ؛ فيقول الذين افتتنوا بالقشور العلمية : إن هذا الدور هو الذي سينتقم العلم فيه من الإسلام ، ويذيقه من الانحلال ما أذاقه للأديان التي نافسها وتغلب عليها ، واتخذ من أهلها شيعة له ، على الرغم من أنه أجنبي عنها ، وكتابه عرى ولغتها أعجمية .

سيخيب فآل هؤلاء الدعاة كما خاب فآل أسلافهم ، حين احتك الإسلام بالإسرائيلية والمسيحية ، والنحل الفارسية والسورانية والكلدانية ... الخ .

نعم سيخيب لأن العلم الذي يزعجوننا به اليوم ، ليس هو علم الأمس العاتي

المتفطرس الذى كان يحيل إليه أنه كشف مساتير الخليقة ، وسرى فى سرائر الوجود ، فحكم عليه حكما لا يقبل النقض ؛ ولكنه علم القرن العشرين الوادع المتواضع ، الذى تملأ يقينا بأنه لم يلم بعد طول مراسه للكائنات ، إلا بقشورها وعلاقات بعضها ببعض ؛ أما حقائقها فلم تنزل تنأى عليه ، وتخفى فى صميمها سرا لو انكشف له لتغير فهمه فى الوجود كل التغير ، ولرأى أنه فى اشتغاله بظواهره ، ووقوفه عند حدودها ، وبنائه المذاهب عليها ، كان يخوض فى أوهام متراكبة بعضها فوق بعض . وهل بعد ما نقلناه من أقوال أقطاب العلم المعاصرين من التصريحات ، بأنهم قد أفاقوا من الغرور العلمى الذى كانوا فيه ؛ مزيد يجب علينا أن نأتى عليه لتدعيم ما نذهب إليه ؟ ماذا تريد بعد أن نقلنا إليك ما قاله الأستاذ الكبير الدكتور (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمى الفرنسى فى مقدمة كتاب الظواهر النفسية للدكتور (ماكسويل) النائب العام فى حكومة الجمهورية الفرنسية إذ قال :

لماذا لا نصرح بصوت جهورى بأن هذا العلم الذى نفخر به إلى هذا الحد ليس فى حقيقته إلا إدراكا لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها ففتلت منا ، ولا تقع تحت مداركنا ؟

« فالويل للعلماء الذين يظنون بأن كتاب الطبيعة قد أقفل ، وأنه لا يوجد شئ جديد يحسن تفهيمه للإنسان الضعيف » .

ماذا يريد المدلل بسلطان العلم بعد هذا التصريح البليغ ، أن يخيف الإسلام به من بطشه العظيم ؟

أنا لا أريد من هذا أن أدعى أن العلم قد ضعف حكمه حتى صار يقبل كل ما يقال بدون نقد ، ولكنى أريد أن أقول إن هذا الموقف المتواضع من العلم ، أداه إلى القول بما كان يعد التخلص منه من أكبر الفتوحات ، وهو عالم ما فوق الطبيعة ، وقد جعل للبحث فيه مقاعد فى أرقى الجامعات كجامعتى اكسفورد وكامبردج .

فهذا العلم المتواضع المتبصر ، هو الذى يؤمل اليوم خصومنا أن يجد منه الإسلام الخصم الألد ، الذى يقضى فيه قضاءه الأخير .

هيات ! فان هذا العلم سيكون من أقوى أعوان الإسلام ، لأن الأصول الإسلامية ، والمبادئ القرآنية ، تتفق وأمثالها من التي أوجدها العلم كل الاتفاق ، فلن يكون بينهما موطن نزاع على شيء من الأشياء . ولكن وُجد فإن الإسلام بما قرره من مبدأ التأويل متى أثبت العقل والعلم صحة شيء ، يخرج من هذه المآزق مرفوع الرأس موفور الاحترام .

وقد احتك آباؤنا الأولون بالعلم ، تحت حماية هذا المبدأ الأصولي الجليل ، فلم يصادفوا منه خطراً على عقائدهم ، ومضوا حيث مضى قُدماً ، فبلغوا منه غاية لم يبلغها واضعوه أنفسهم ، واستفادوا من وسائله على أوسع ما تسمح به ، فكانوا السابقين إلى أسرار الصناعات ، وأساليب الإبداعات ، مما جعل مدنيّتهم المادية من الرفعة ، في مستوى عقائدهم الدينية من المنعة ، وخلفوا وراءهم من الآثار ما لا يزال المؤرخون يكتشفون من غرائبه ما يطرفون به معاصريهم .

نعم إن آباءنا هؤلاء قد عادوا الفلسفة ، ولهم في ذلك تاريخ لا يستطيع إنكاره ، ولكن هذه المعادة فضلاً عن أنها لا تشين سمعتهم ، فهي تستنزل العجب من حكمتهم ؛ ذلك لأن الفلسفة ضرب من الخيالات التصورية ، وأنت خير بقيمة الخيالات من الفلسفة العصرية ، وبما تصف به الآخذ بها من انخراط القوى العقلية ؛ فيكون استعصاء أئمة المسلمين على سلطان تلك الخيالات ، في عهد كان فيه سلطانها على العقول لا يستطيع دفعه ، من أقوى الدلالات على سعة عقولهم ، وسمو مداركهم ، وعلى حكمة التعاليم التي كانت تمنعهم من الترامي عليها كما ترامت عليها أكثر الأمم .

الفلسفة اليوم علمية بحتة ، أي مؤسسة على الأصول الموصلة إلى المجاهيل وفقاً للأسلوب العلمي ، لا أنها خيالية تصورية ، يطير الإنسان معها على أجنحة الأوهام فيتأدى إلى نتائج يسجلها قصورها عليها تسجيلاً أبدياً ؛ والمسلمون كما رأيت كانت مراميمهم من أول عهدهم علمية أيضاً ؛ فهل يعاب عليهم ذلك بعد ما علمت أن الفلسفة الخيالية أصبحت وأحاديث العجائز في مستوى واحد ؟

إن مناعة الإسلام التي ضربت بها الأمثال ، بعد أن خرج فائزاً من جميع

ما صادفه من الخصومات في تاريخه الطويل ، متكلم بانتصار جديد على المذهب المادى الذى يحاول فلوله اليوم في بلاد المسلمين أن ينشئوا له دار هجرة يأوى إليها ، بعد أن لفظته الأقطار الغربية حين ثبت لها أنه قائم على إيمان تقليدى راسخ ، بخلو الوجود من غير المادة وقواها ؛ لا على بحث قيم ، ولا تجربة حسية . والعلم بعد أن شابت ناصيته في التطور ، ورأى خطر التحكم الوهمى على كماله ، يأبى أن ينقاد بعد اليوم لمن يصف بالوجود أو بالعدم ما ليس له به علم ثابت . وهذا هو الأصل الأول للفلسفة الحسية . قال العلامة (ليريه) في كتابه : (كلمات في الفلسفة الحسية) :

« بما أننا نجهل أصول الكائنات ومصائرهما ، فلا يجوز لنا أن ننكر وجود شيء سابق عليها أو لاحق لها ، كما لا يجوز لنا أن نثبت ذلك » .
وقال الفيلسوف روينيه في كتابه (الفلسفة الحسية) :

« يريد الفلاسفة الحسيون أن يبعدوا عنهم كل خيال أو توهم ، وأن لا يعتمدوا إلا على المشاهدة المحسوسة ، وأن يحدفوا من أقوالهم كل الافتراضات التى لا يمكن تحقيقها » .

هذه هى أصول فلسفة العصر الحاضر ، فهل الماديون منها في شيء ؟ هل منها حكمهم البات بقدم المادة وأبديتها ، وبعدم وجود عالم أرفع من عالمها ؟ يقول خصومنا : إذا كانت هذه الإنكارات الباتة ليست من فلسفة العصر الحاضر ، فهل منها القول بحدوث المادة ، وبوجود عالم أرفع من عالمها ؟

نقول : لا ، ليس منها هذا ولا ذلك ، ولكن إذا وُفق رجال من أهل العلم إلى البحث في منحى جديد من مناحى الوجود ، فأكدوا لنا غثورهم على آثار عالم فوق هذا العالم ، وبقيام عقول كعقولنا فيه مجردة عن المادة ، ودعوا لإخوانهم من كل جنس لشهوده ؛ فلبوا الدعوة وأيدوهم فيها ، وما زالوا يكثررون حتى بلغوا الألوف في تسعين سنة متوالية ، فبأى حق ننكر عليهم ما يقولون وهو خاضع للتجربة ؟

إذا كنا ننكر ذلك العالم العلوى بحجة أنه مما لا ندركه بأبصارنا ولا نحس به بمشاعرنا . فإن في الوجود الذى نعيش فيه ظواهر مادية كشفها العلم المحسوس وقررها ، ونحن لا نعلم بوجودها ، فهل في الأرض من يقول بوجود نكراتها ؟ قال الأستاذ الفلكى الكبير (كاميل فلامريون) في كتابه (الموت وغامضته)

: la mort et son mystère

« الإنسانية تعيش في جهالة بعيدة الغور ، وهى لا تدري أن تركيبنا الجثمانى الطبيعى لا يعرفنا بكل ما يقع فيه ، فإن حواسنا تخدعنا في كل شيء ، والتحليل العلمى وحده هو الذى يؤتينا ببصيص من النور عنه .

من أمثال ذلك أننا لا نشعر بالحركات الهائلة للكوكب الذى نحن عليه ، فهو يسبح في الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلو متر في الساعة ، ليتم دورته السنوية حول الشمس .

ولا نشعر بثقل الهواء علينا مع أن سطح كل جسم إنسانى يحمل منه مازنته ١٦٠٠٠ كيلو جرام معادلة بمثلها من الضغط الداخلى .

وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل .

والشمس ترسل لنا على الدوام باشعاعات مغناطيسية تؤثر عن بعد ١٥٠ كيلو متر على الإبرة المغناطيسية .

وحواسنا العادية تشعر بروائح وأصوات وأنوار ، والحقيقة أن ليس في الكون خارج حواسنا غير حركات صامتة ، فالنور والحرارة والصوت حركات ساكنة . وفي الكون على الدوام ذبذبات اتيرية ، تخترق هذه اللانهاية السماوية في أثناء الليل ، كما هي وقت الظهيرة ، ولكننا لا نحس بالضوء إلا في أثناء النهار .

ويوجد حولنا من الحركات والذبذبات الاتيرية أو الهوائية ، ومن القوى والأشياء غير المرئية ، ما لا نراه ولا نحس به . هذه حقائق علمية مطلقة ، وبدائه لا يمكن النزاع فيها .

وعليه فيمكن أن يوجد حولنا أشياء بل كائنات حية ، لا تُرى ولا تُلمس ، تعجز حواسنا أن تصلنا بها .

فإذا تقرر أن حواسنا لا تكشف لنا كل ما هو موجود ، وأنها قد تعطينا شعورات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا ، فلسنا نكون على شيء من الثبت إن ظننا أن ما نراه هو كل ما فيه .

نقول بعد هذا كله : إن أعلن رجال من أهل العلم الجديرين بالثقة أن بحثهم قد أداهم من طريق الحس إلى آثار عالم أعلى من عالم الطبيعة ، فبأي حق نرفع عقيرتنا في وجوههم مكذبين ؟

هذا النزق لا يصدر إلا من رجل جاهل ، يتوهم أن ما يراه هو كل الواقع ، وأن كل ما ليس بوجود لحواسه فليس بوجود .

إن الله قضى أن يحتك الإسلام بالعلم في عهد أدرك العلم فيه أنه كان مخدوعا بالقشور ، وأن جماهير من أقطابه هدوا إلى عالم ما فوق الطبيعة من طريق التجربة ، فهل تتصور بعد هذا أن الإسلام يصادف من العلم خصما لا يلين ؟

فإذا كنا نلح في وجوب الاستفادة من هذا الاكتشاف الروحي الجديد في هدم سلطان المذهب المادى فلسنا ببدع في ذلك ، فإن أرقى أمة مسيحية في الأرض قد سبقتنا إلى ذلك ، هي الأمة الانجليزية ، فقد اجتمع فيها مؤتمر ديني كما ذكرت ذلك المجلة العالمية الفرنسية في عددها الصادر في ١٥ يناير سنة ١٩٢١ ، فقالت : « إن مؤتمر الأساقفة الأنجليكانيين اجتمع في قصر لامبيث من ٥ يوليو إلى ٧ أغسطس من سنة ١٩٢٠ ، وحضره ٢٥٢ من رؤساء الكنيسة منهم مطارنة كنتربوري ويورك وسدنى وكتاون والهند الغربية وملبورن وإمارة بلاد الغال الخ ، هذا عدا أكثر من مئة أسقف آخرين ، ونظر في أمر المباحث الروحية ، فاعترف بقيمتها في مكافحة المادية بنجاح عظيم » .

فإذا كانت الكنيسة المسيحية بعد أن أبلت بلاء عظيما في مكافحة المباحث النفسية من أول نشوئها قد اضطرت ، بعد جهاد نحو ثمانين سنة ضدها ، أن تعترف بضرورتها ، وتستعين بها لمكافحة المادية ، فهل يهمل أمرها المسلمون ؟

إن هذه المباحث النفسية قد أدّخرت لمثل هذه الشبهات ، وقد سخر قيم الوجود العلم الرسمي في الاشتغال بها على أسلوبه ، لأن ذلك هو الطريق الوحيد للاعتقاد بصحتها .

فإذا بقيت تحديات المذهب المادى قائمة ، ولم تقابل بما يدحضها من الطريق العملى ، ظلت ثابتة قوية ، وظل الدين حيا لها ضعيف الحجة ليس له من عاصم غير التسليم . ولم نرضى هذا الضيم ، والفرصة أمامنا سائحة للحصول على الدليل المحسوس ، وقد سبقتنا أعظم أمة مسيحية إليه ؟

وإذا كانت الكنية النصرانية قد اعتدّت بالمباحث النفسية ، تفاديا من خطر التحديات الإلحادية ، فقد اعتدت بها أيضا أعظم الجامعات الأوربية ، كجامعتى كمبردج وأكسفورد ، وفاء بحق العلم ، ومدا لسلطانه على ما نرى وما لا نرى من هذا الوجود العظيم ^(٥) .

* * *

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى ، ص ٥٦ ، صفر سنة ١٣٦١ هـ .

obeikandi.com

رسالة محمد

توسع الكتاب المعاصرون في استعمال كلمة (رسالة) ، فأطلقوها على كل عمل أدبي أو اجتماعي يضطلع به فرد من الأفراد لفائدة المجتمع الذي يعيش فيه ، فيقولون : قد أدى فلان رسالته العلمية على أكمل حال ، ونال إعجاب مواطنيه وشكرهم .

وهم ما استحسنوا هذا التوسع إلا لدلالته على أن كل إنسان مدفوع بتأثير ميوله الطبيعية لأن يضطلع بعمل من الأعمال لمصلحة الجماعة التي يعيش بين ظهرانيها . وهو تعبير مجازي منقول عن بعض اللغات الأجنبية ، ومؤسس على المقررات البيكولوجية .

فإذا حاول مفكر لا يعتقد بإمكان الوحي ، ولا يقول بالنبوة ، أن يقدر قدر الرسالة التي أداها محمد ﷺ للمجتمع الذي نشأ فيه وللعالم أجمع ، في حدود الاستطاعة البشرية (العادية) ، وجد نفسه حيال حوادث ضخمة لا يعقل أن تتم إلا في خلال آحاد طويلة ، وعقب تطورات متوالية ، ومقدمات متتابعة .

ماذا يجد ؟ يجد أنه ﷺ ، في خلال سنوات معدودة ، أخرج أمته طفرة من حالة قبلية كانت عليها ، إلى وحدة اجتماعية قوية التماسك ، سقطت فيها كل مميزات الحالة الأولى ، من التمايز بالأنساب ، والتباهي بالألقاب ، والتناحر لأنفه الأسباب ، فضلا عن تجردها من كل غاية اجتماعية ، ونزعة عمرانية ...

ويجد جماعات كانت من حياتها الأدبية في جاهلية جهلاء ، تتقلب في حمائها ، وتعمل على ما تقتضيه من اهتمام حقوق المستضعفين ، وواد البنات والبنين ، وتأليه الأقوياء الأعلين ، والرتوع في أقدار الشهوات الجسدية ، وأقذاء المطالب الحيوانية ، عارية من كل المطامح العقلية ، والمرامي العلوية ؛ نقلها محمد ﷺ إلى أمة تدين بالكرامة الإنسانية ، وتشرب إلى المكنات العقلية ، وتقوم على أرقى المبادئ

الحكمية ، وأشرف الأصول الأدبية ، وترمى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ، غير مفرقة بين الضعفاء والأقوياء ، ولا مكترثة بالحوائل التي كانت أقامت الكبرياء ، وفرضتها الجهالة العمياء .

أمة لها مقاصد عالمية ، ومرام قضية ، من توحيد البشرية ، وإحالة أديانها إلى وحدتها الأصلية ، وحسم ما بينها من أسباب الخلافات العرضية .

ويجد فقاما كانت تفخر بالأمية ، وتعتر بالحياة البدوية ، وتباهى بالتحلل من جميع الربط الاجتماعية ، قد استحالت فيها الحماسة الحربية إلى ضراوة وحشية ، والنزعة الاستقلالية إلى فوضى حيوانية ؛ لا يعتدون بأصل عقلي ، ولا يأبهون بمقرر علمي ، ولا يبالون بنظام عالمي ، انقطعوا في صحاريهم ووديانهم إلى تقاليد موروثة لا ييغون عنها حولا ، كانوا يقولون كلما نبههم إلى الانتقال عما هم عليه منذرهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ (أى على طريقة) وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ^(١) ؛ وقد وصفهم الحق بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ أَفْوَآءٌ آبَاءُهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ ^(٢) ؛ وهذا نهاية ما يعرف من الجمود على القديم .

فما لبث محمد ﷺ إلا سنين حتى انقلبت حالتهم إلى ضد ما كانت عليه ، فرأيانهم منهومين بالعلم ، مشغوفين بالنظام ، معنيين بالترابط والتضام ، قد استحالت ضراوتهم الحربية إلى شجاعة مشبعة بروح الرحمة ، وقافين مع الأصول المقررة ، كأنهم خريجو جامعات ؛ معتدين بالمعارف المحررة ، كأنهم أعضاء أكاذيميات ؛ محترمين للنظام العالمي العام ، وعاملين على الاندماج فيه .

وأعجب من كل هذا وأدعى للدهش والحيرة ، أن محمداً ﷺ أحاط بإصلاحه هذا بضروب من المناعات والحوافظ وأسباب البقاء وعوامل التطور ، جعلت عمله ثابتا مستقرا لا يتزعزع بوفاته ، ولا ينحل بما يطرأ عليه من انتقالات الحكم وآفاته ؛ فأحدث هذا المجتمع الفتى القليل العدد في المجموعة العالمية من التحولات ما لم يكن

(١) سورة الزخرف : ٢٣ .

(٢) سورة الصافات : ٧٠، ٦٩ .

يحلم به أحد ، فزالت بواسطته دول ، وخلفتها دول ، وولدت مبادئ في الدين والأدب والسياسة لم تكن موجودة ، نازعت الحياة مبادئ عتيقة كان لها السلطان المطلق على العقول والقلوب آماداً طويلة ، واضطرتها إلى الانحسار والانكماش ، وما كانت غير برهة من الزمان حتى تبدلت الأرض غير الأرض ، والعقول غير العقول ، فاتجه العالم مدفوعاً بحركة قاهرة إلى الخروج من جمود طال عليه الأمد فيه ، وحلت به حياة جديدة كان من آثارها نهوض الشرق من كبوته ، وتنبه الغرب من غفلته ؛ ولا يزال العالم يتطور تحت تأثير ذلك الانقلاب ولما يتم تطوره ، وإن يوماً من أيام الانتقالات الاجتماعية كألف سنة .

فإذا أراد المتأمل بعد هذا البيان المجمل أن يقدر قدر رسالة محمد بين الرسائل الإنسانية التي قام بها الأفاضل ، ولم يكن مؤمناً بالنبوة ، حار أن يجد لها معياراً يزنها به ؛ وإذا عمد إلى المقارنة بينها وبين غيرها لا نقول يجد البون بعيداً بينهما ، ولكننا نقول لا يجد تلك المقارنة ممكنة .

نعم ، قد نبغ في الأرض مصلحون كثيرون ، ولكنهم دون استثناء جاءوا بالأوليات ، ثم كمل عملهم في قرون كثيرة بواسطة من تتابعوا بعدهم من تلاميذهم . فإن كانوا بمسبيل تأليف أمة انحصر جهدهم في وضع الأساس ، لأن أعمارهم لا تتسع لأكثر من ذلك ، وتركوا لمن يجيء بعدهم رفع البناء ؛ وإن كانوا بصدد إصلاح المعتقدات ، وتهذيب العادات ، أتوا ببعض المقدمات ، ووكّلوا لأخلافهم القيام بما يستدعيه هذا الإصلاح من المحاولات ؛ ولكن محمداً جاء بالنهايات ، فوضع أساس الاجتماع وأقام عليه البناء ، وأصلح المعتقدات بعد أن اجتث الوثنية اجتثاثاً لا تقوم لها بعده قائمة هناك ، وهذب النفوس ، وطهر القلوب ، وأنار العقول ، ولم يترك الأمة إلا وهي مثل أعلى لما يمكن أن تكون عليه جماعة من صحة الاعتقاد ، وترابط الآحاد ، وتوحد الوجهات ، وتكافل الطبقات ، وتضافر الهمة على بلوغ أقصى الغايات .

هذا من ناحية بناء المجتمع ، وأما من ناحية النظم التي يجب أن يقوم عليها ، فقد جرت السنن العادية على أن تكون في مبدأ أمرها أولية ، ثم تتطور على طريقة تدريجية ، حتى تصل إلى ما تصل إليه النظم الوضعية ، في مدى آماء تعد بالقرون ؛

ولكن محمداً خرق هذه السنة ، ولم يترك الأمة إلا بعد أن ترك فيها كتابا شمل من أصول التشريع ، ومبادئ الاجتماع الراقى من العدالة والمساواة والحرية والديموقراطية وحدود الحقوق والواجبات ، مالم تصل الأمم المتقدمة إلى بعضه إلا فى العصور المتأخرة ، بعد قرون قضتها فى الانقلابات والفتن والثورات .

فإذا كان قصارى رسالة العبرى ، ركناً يقيمه فى بناء المجتمع ، أو تجديداً يوفق إليه فى ناحية من نواحي النشاط العلمى أو العملى ، ولهذا السبب يُحشر فى زمرة بناء الإنسانية ، ويتنافس البسيكولوجيون فى دراسة شخصيته ، وتحليل نفسيته ، وقد يبالغون فيعنون بقياس حجمته ، وتعيين نسبة مخه إلى سائر جسده ، ففى أية مكانة تضع رسالة محمد ، وبأية نهمة يجب أن يُعكف على دراسة شخصيته ، وتحليل نفسيته ، وفى أية زمرة يجب أن يُحشر بعد ذلك من مؤسسى الإنسانية ؟

من الظلم البين أن نضعه فى مستوى أصحاب الرسائل المجازية ، لأن البون سحيق بينهم وبينه ، أفلا يكون من العدل أن نضعه حيث وضع هو نفسه : بشر يوحى إليه ، ورسول خلت من قبله الرسل ؟

هنا تقوم عقبة كأداء فى طريق الذين لا يعتقدون بالوحى ولا بالنبوة ، فتراهم قد يعترفون بأن ما قام به محمد ﷺ عمل فذ ليس له شبيه فى أعمال العباقره ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعتبروه من آثار عالم ما فوق الطبيعة ، لأن هذا العالم عندهم غير موجود إلا فى خيال الذين يقولون به ، فكل ما فى الكون فى مذهبهم كوفى ، وكل عمل يتم فيه طبيعى ، حتى الروح والعقل والنواميس ، والنظم الوجودية ، والإبداعات الصورية والمعنوية .

فهم يقولون : العلم الذى يجب أن يعول عليه دون غيره ، يشترط أن يكون لكل حقيقة دليل محسوس ، ولا دليل لكم على إمكان الوحى ، ولا على النبوة ، إلا ما تنتزعونه من خيالككم انتزاعاً ، فلا حق لكم فى تكليفنا بعقيدة ليس لها أصل تقوم عليه على شرط العلم .

نقول : لو كنتم عنيتم باستيعاب المقررات العلمية ، لما تعذر أن تجدوا للوحى وللنبوة ما يسوغهما منها . أما علمتم أن التنويم المغناطيسى أصبح من المقررات

العلمية ، وأنه كشف أن للإنسان عقلا باطنيا أرق من عقله العادى ، هذا لا يمكنه أن يستمد معرفته إلا بواسطة آلات وأعصاب ، وذلك يستمدّها بذاته بغير وساطة آلات ولا أعصاب ؛ وهذا إدراكه للموجودات محصور فى حدود الحواس ، وذلك إدراكه غير محصور فيها ، فهو يرى ويسمع ويحس ويشم ويدوق ما هو بعيد عنه بألوف الأميال ؛ وهذا تقوم الحوائل المادية عقبة دون إدراكه ، وذلك لا يصده حائل عن الإدراك ، فهو متصل بالعالم اتصالا مباشرا على حالة تشعر بأنه من عالم أرفع منه بما لا يقدر ، ولا يحجبه عن الظهور إلا الحالة العادية التى عليها الإنسان ، ولكن متى بطلت هذه الحالة العادية بواسطة النوم المغناطيسى ، خلفتها الحياة الحقيقية للروح ، ورئى رأى العين أنها ليست فى حاجة إلى الحواس الخمس فى الاتصال بمصادر المعرفة ، وأنها لا تتقيد بموائل الزمان والمكان ، فإذا كُلفت أن تأتى بخبر من أقصى الأرض ، انتقلت إليه بمجرد الإرادة ، وأنتك بما تسأل عنه كأنه بجوارها ؛ وإن سألتها فى أى عالم تعيش ؟ أجابتك أنها متصلة بعالم ما فوق الطبيعة ، وأنها تقابل الأرواح المجردة فيه .

أفلا تدل كل هذه الظواهر المحسوسة على أن للروح الإنسانية اتصالا باطنيا بعالم أرفع من هذا العالم المادى ، تتصل فيه بالأرواح المجردة ، وتستمد منه ما هى فى حاجة إليه من القوة والمعرفة ، وأن (العلم الرسمى نفسه) هو الذى كشف هذا الأمر بعد أن دأب على دراسته من سنة (١٧٧٥) حيث أعلنه الدكتور (مسمر) ، ودأب على تمحيصه الباحثون إلى اليوم ؟ .

هذه حالة العقل الباطن فى الإنسان العادى ، فماذا تكون حالة هذا العقل الذى بَلَغ الإنسان درجة الصفاء ، كما هو عند بعض الأفذاذ من الذين اتفق على اعتبارهم رسلا وأنبياء ، ألا يكون أشد اتصالا بالعالم الروحاني ، وأكثر قبولا للفيض الإلهى ، من طريق غير طريق الحواس ، وهو ما اتَّفَق على تسميته بالوحي ؟

إن (العلم) أثبت بما شاهده من آثار ما أسماه بالعبقريّة ، أن من الناس من يلهمون بالإبداع فى بعض النواحي إلهاما من غير طريق التفكير ولا الجهد العقلى ، فيأتون بما لم يسبقهم إليه أحد ولم يكونوا هم يتخيلونه تخيلا ، وكان (العلم) يسجل هذه الحوادث الفذة ، ويمتنع عن تعليلها لاستعصائها على كل علة ، حتى

اكتشف العقل الباطن ، وعرف أن له اتصالات باطنية لا علم لصاحبه بها في (حالته العادية) ، فسهل تحليلها من هذا الطريق ؛ أفلا يمكن تحليل النبوة بهذه الاتصالات نفسها وإن كانت هذه أرق من تلك ، وأبعد منها أثرا ، وأرفع شأنًا ؟

كلمة ختامية :

إن الذين يعتصمون بالعلم ، ويرون الحكمة في أن يقفوا عند حدوده ، لهم الحق أن يفخروا بموقفهم هذا ، ولكن الواجب عليهم أن لا يتجاهلوا بعض ما وصل إليه ، ليحافظوا على مذهب أهلهم في عصر غير العصر الذى يعيشون فيه .

نحن اليوم في منتصف القرن العشرين الذى ثبت فيه عمليا أن المادة أصلها القوة ، وأنه يمكن إفناء أية مادة عمليا ، وأن المذاهب الفيزيولوجية التى حاول أصحابها في عصر مضى أن يثبتوا بها أن العقل إفراز مخي ، وأن الحياة نتيجة الاحتراقات المادية في الخلايا ، وأن الشخصية الإنسانية نتيجة التركيب الجسماني ، هذه المذاهب قد أخذت حظها من انخداع العقول بها ، ثم سقطت دولتها أمام ظواهر التنويم المغناطيسى ، والمباحث البيكولوجية الأخرى . وقد اعترف علماء لا يشق لهم غبار بهذه الحقيقة على رعوس الأشهاد .

قال الباحث المشهور (جابريل دولان) في كتابه (المذهب الروحي أمام العلم) بعد أن ذكر ما قوبل به اكتشاف التنويم المغناطيسى من المعارضات قال : « أما اليوم فقد حدث في مصلحته رد فعل عظيم ، فانك ترى الجرائد على اختلاف صبغاتها وأماكنها ، والمجلات الطبية أيضا ، مشغلة بذكر ظواهره العجيبة ، وحوادثه المدهشة » .

وقال العلامة الدكتور شاركو وهو من أقطاب النهضة الطبية العالمية في هذا العصر : « النوم المغناطيسى عالم تجدد فيه بجانب الظواهر التى يمكن تحليلها بعلم الفيزيولوجيا ، ظواهر أخرى فوق الطبيعة لم يستطع أحد تحليلها للآن ، ولا تتفق وأى مقرر فيزيولوجى »

وقال الأستاذ العلامة (بيو) في كتابه (المخاطبات على المغناطيس الحيوى) :

« النوم المغناطيسي يثبت وجود الروح وخلودها ، ويبرهن على إمكان اختلاط أرواح متجردة عن المادة بأخرى لم تنزل مكتسبة بالمادة » .

هذا أثر التنويم المغناطيسي الذي يتجاهل منكرو عالم ما فوق الطبيعة أمره ، وليس هذا من القيام بحق الأمانة العلمية في شيء .

هذه كلمة أقولها على عجل ، ذكرى لمن كان له قلب ، مستدلاً بها أن العلم الذي يتحككون به في إنكار عالم ما فوق الطبيعة ، ليس هو اليوم بالعلم الذي كان ينكر كل ما يجهله ، ولكنه علم اكتشف من آثار العالم العلوى ما جعله يمضى قدماً في سبيل الاستكثار من ظواهره ، وفيها من الدلائل المحسوسة على وجوده ما لا يدع للشك فيه مجالاً (٥) .

* * *

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الرابع ، ص ١٥٠ ، ربيع الآخر سنة ١٣٦١ هـ .

obeikandi.com

المثل العليا في الإسلام

للإنسان قوى متنوعة عقلية وجسدية يمدّه بها تكوينه البديع ، وُضعت فيه لتوصله إلى الغايات التي كُتب له أن يبلغها في حياته المادية والأدبية ، فهو في حاجة ماسة إلى عوامل أرقى من الواقع ليندفع تحت تأثيرها إلى الأمام ، ويوجه خصائصه التوجيه المناسب لمكانته ، باعتبار أنه أكرم الكائنات الأرضية . فهل هذا العامل موجود في الواقع ؟ أجاب بعض الفلاسفة بالإثبات ، ونفاه آخرون ، راثين أن الأمر في الأفراد والجماعات يجري كما يتفق ، لا كما يُرجى أن يكون ؛ قالوا ما دام هناك عقل فهو الذى يملئ على الإنسان ما يجب أن يسلكه تحت تأثير الحاجات الوقتية ، والدوافع النفسية ، ومقتضى الحالات الراهنة .

وعندنا أن هذا القول يمكن أن يكون صحيحا في الحالة البدائية للإنسان ، وهو تحت تأثير الحوافز القاهرة من الحاجات الأولية ، ولزاء المخاطر المروعة من الحوادث الطبيعية ، فيرجع وهو في هذه الحالة أن لا يكون له مثل عليا يرمى إلى تحقيقها في وجوده المادى والمعنوى . ولكنه بعد أن تسب له الحياة ، ويقوى على مغالبة الجوائح ، لا يعقل أن لا يكون له مثل عليا لحياته الشخصية والاجتماعية ، يتوجه تحت تأثير جواذبها لتحقيقها .

وإذا ثبت أنه كان لكل أمة دين يمثل لها السعادتين في كتابه ، وسلطان دنيوى تبذل روحها رخيصة في سبيل توطيد أركانه ، فيتعذر على الباحث أن يتوهم أن لا يكون لكل منها مثل عليا تتطال بكل ما تملكه من وسع لأن تصل إليها .

دع الأمم المتخلفة في القدم جانبا ، واستعرض الأمم التى حفظ لنا التاريخ أخبارها كاملة ، كالصينيين والهنديين والمصريين والآشوريين واليونانيين والرومانيين ، فلا يتداخلك شك في أنه كان لكل منها مثل عليا في الحياة ، مدونة في أساطيرها ، ومحفورة في جدران هياكلها ، وثبت أنها كلما كانت تتقدم في سن الاجتماع ، كانت ترفع

مثلها العليا إلى حيث وصلت مطامعها . وها نحن في عالم حافل بالأهم الراشدة ، ذات القدم الراسخة في العلم والمدنية ، نرى لكل منها مثلاً علياً في اجتماعها وسياستها وحضارتها ، تحاول الوصول إليها .

وقد اجتمع لدينا من جملة هذه المثل قديمتها وحديثها ، ما يسمح لنا بالمفاضلة بينها ، وقد استعرضنا آثارها على أهلها ، والتطورات المتوالية التي كابدتها في حياتها ، فلم نر من بينها ما يسمو إلى مرتبة المثل العليا للاجتماع في الإسلام ، ولا ما يشبهها في حسن توجيه أهلها إلى المرشد ، وفي سرعة إيصالها إياهم إلى الغايات ، وفيما نتج منها من الخيرات والبركات على العالم أجمع ، فكانت جديرة بالنظر والتقدير ، وبالبحث في إمكان رفعها إلى مستواها من وعي المسلمين وقلوبهم .

من هذه المثل الإسلامية قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ^(١) . هذا المثل القرآني الأعلى ، كان من العوامل التي سيطرت على نفسية الأمة الإسلامية فقادتهم إلى ما تأدت بهم إليه من دفع ما كان رائئاً على القلوب من جاهلية ، وكسر ما كان مفروضاً على العقول من أغلال ، وتذليل ما كان بين الناس وبين التكامل من عقبات . وأصبحت بلاد العرب بعد أن كانت مباءة للوثنية ، ومثابة للجاهلية ، وموئلاً للتقليد والجمود والتحجر ، مثاراً لأعظم اندفاع إنساني بعيد الأثر وراء تحرير العلم والحكمة ، وتحطيم الحجب دون النظر والتفكير ، وإزالة القواطع التي كانت قائمة أمام المدنية الفاضلة .

هذا المثل الأعلى وإن كان قد تحقق والنبى موجود بين ظهراني أمته ، فإنه بعد ذلك العهد الممتاز أصبح مثلاً أعلى لأتباعه في كل جيل ، وهو يرشح الأمة السارية تحت ضوئه لأن تكون خير أمة ، ولم يحصر الخير في القوة ولا في الثروة ولا في شيء مما يوقظ المطامع ، ويثير المطامع ، ولكنه أطلقه ليتمحض للكمال الإنساني

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

بغير تحديد ولا تخصيص . وخير الأمم لا يصح أن تكون أقلها ثروة ولا علما ولا قوة ، وتزيد عنها في أن يكون من آثارها الخير أنى وجدت ، وفي حيزها الفلاح أنى كانت ، الفلاح الناتج من تظهير القلوب ، وتقويم الأخلاق ، ومن الإيمان بالله ، على أشرف الوجوه وأعلقها بالنفس ، وأشدّها إهابة بالأرواح إلى السمور .

المثل العليا في الإسلام ليست من نوع المثل الاجتماعية المعروفة ، ولكنها نسيج وحدها في مبنائها ومعناها ، وكذلك كانت في نتائجها وثمراتها . نعم كانت فذة في الناحيتين ؛ فإن الأمة الإسلامية آلفت في مثل عدد الأصابع من السنين ، وهو انتقال فجائي حير العقول ، واستعصى على التعليل ، وهو يعتبر معجزة اجتماعية ليس لها ما يشبهها في تاريخ العالم .

ولم يقف أمرها عند هذا الحد ؛ فقد تناولت كل ما كانت عليه الأمم التي اتصلت بها من علم وفلسفة وفنون وصنائع ، فأحيت مواتها ، وزادت موادها ، وجمعت شواردها ، وبنت المدارس والجامعات لها ، وتنافس الخلفاء والأمراء في اقتناء كتبها ، وحشروا إلى قصورهم من أكناف الأرض جلة أقطابها ، ونشروا خلاصة معارفهم في أقطار العالم لا فرق بين شرقها وغربها ، وقبلوا في معاهدهم طلبه العلم من جميع الأمم غير مميزين بين مسلمها ونصرانيها ، ولم يمض عليهم أكثر من قرنين حتى كان للمسلمين زعامة الأرض في العلم والسياسة والمدنية .

إن في الإسلام طائفة من الأصول والتعاليم مقيسة على قابلية النفس الإنسانية ، ومؤلفة بحيث تستثير قواها الكامنة فيها ، وتوجهها إلى المرامي البعيدة عنها ، مزودة بمناعات مناسبة لها ، تنتج آثارا يحار في تعليلها العقل .

هذا ما يدل عليه تاريخ الإسلام من أول وجوده إلى أن بلغ غاية نموه ، وإلا فكيف يعقل أن أمة منقسمة إلى قبائل متعادية تتألف في مدى ثلاث وعشرين سنة حتى تستحيل إلى أمة شديدة الترابط ، قوية التماسك ، إلى حد أن تعجز الحوادث التي احتوشتها عن تفكيك عناصرها ، ثم تتابع حياتها الاجتماعية والأدبية حتى تبرز بها الأمم الغريقة فيها ، وتفرض سلطانها على ربع الكرة الأرضية ، لا في الناحية المادية وحدها ولكن في النواحي العلمية والمدنية أيضا ؟

إذا لم تكن مجموعة التعاليم الإسلامية تضاعف من قوى العامل بها جسدياً وروحياً مرات كثيرة ، بحيث تهيئه للتغلب على جميع العقبات التي تقف في سبيله ، فكيف كان يسوغ تكليف الإسلام الآخذ به أن يقاوم عشرة من أعدائه ويؤاخذه إذا انهزم أمامهم ؟ ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا ﴾ ^(١) ، ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ^(٢) .

وكيف يفهم أن تصل جماعة تكونت بالأمس ، لا قُدِّمة لها في العلوم ولا الفنون والحضارة ، في مدى قرنين إلى درجة عالية منها أصبحت معها صاحبة الزعامة العامة فيها ، وبقيت مؤلفاتها وآثارها فيها تنير طريق العالم كله ستة قرون متوالية ، كما أثبتنا ذلك من أقوال أقطاب المؤرخين والاجتماعيين في أعدادنا الماضية ؟ .

كل هذا لا يمكن قوله إلا تحت ضوء النظرية التي قررناها هنا ، وستتابع بيان تلك الأصول والتعاليم الإسلامية وندرسها من هذه الناحية الخاصة إن شاء الله ^(٣) .

(١) سورة الأنفال : ٦٥ .

(٢) سورة الأنفال : ١٦ .

(٣) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ١١٤ ، سنة ١٣٦٦ هـ .

المسلمون أمة وسط ليكونوا شهداء على الأمم

تكلّمنا في الجزء الماضي عن المثل العليا ، ومهمتها في تقويم الأمم وتطويرها ، من ناحية عامة ، ثم آثرنا المثل الإسلامية العليا بالذكر ، وذكرنا مثلاً منها ؛ واليوم نلّم بمثل ثان ، لأن في التذكير المتكرر بهذه المثل ، وفي بيان مكانها من نفسية الجماعات البشرية ، تقوية لتأثيرها ، بشرط أن تكون محترمة في قلوب الآحاد ، ومتعمدة من الوعاظ بما يجبها إليهم ، وبما يدل على أن العمل بها واجب عليهم ، في غير تنطع ولا استكراه .

نأتى اليوم من هذه المثل الإسلامية العليا بقوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ^(١) .

ونحن نفسر هذه الآية : فقوله تعالى : (وكذلك) إشارة إلى معنى الآية المتقدمة ، وهى قوله جل وعز : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ^(٢) . سماهم سفهاء أى خفاف الأحلام ، لأنهم حقروها بالتقليد ، وبالإعراض عن النظر والتحقيق . فاعترضوا على المسلمين الأولين في تغيير قبلتهم إلى البيت الحرام بعد أن كانت إلى بيت المقدس . وهم في اعتراضهم هذا قد اتصفوا بالسفاهة لأنهم لم يعقلوا أن توجيه الوجه إنما يكون إلى الله لا إلى المكان ، والله المشرق والمغرب ، فأينما يولوا فثم وجه الله ، لأنه تعالى لا ينحصر في مكان ، فاعتبر الغفلة عن هذه الحقيقة سفاهة .

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٢ .

فيكون معنى الآية التي نحن بسبيلها : إننا كما هديناكم في أمور دينكم ودنياكم إلى الصراط المستقيم ، جعلناكم أمة وسطا أى خيارا معتدلين . (وأصل الوسط اسم للمكان الذى تتساوى جوانبه ، استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفریط) وإنما جعلناكم كذلك لنسند إليكم مهمة عالمية جليلة الشأن ، هى أن تكونوا شهداء على الناس فى تقصيرهم وغلوهم ، ويكون الرسول عليكم شهيدا .

هذا مثل أعلى من مثل الاجتماع لم ينزل به الوحي على أمة من الأمم غير الأمة الإسلامية . وإنه لأمر جليل يحق معه للأمة التى تنال هذا التقدير السماوى أن تبذل كل ما فى وسعها من علم وعمل للمحافظة عليه . ولا يمكنها ذلك إلا بدوام مراقبة ذاتها ، فى جميع حركاتها وسكناتها ، والجرى على الطريق السوى فى رغباتها ونزعاتها ، والقيام على القسطاس المستقيم فى معاملاتها ومنازعاتها .

فلا جرم أن أمة تنصب من نفسها على نفسها حسيبا من هذا الطراز الصارم ، وتقيم من ضميرها المشيع بروح العدل ، والمتأثر بأرفع التعاليم وأكرمها ، رقبيا على سيرتها ، تصل إلى أسمى درجات الكمال الاجتماعى ، وتتهدى إلى أبعد غايات الرقى المادى والأدبى . فإذا قلنا إن هذا المثل القرآنى الأعلى ، كان أثره على الأمة الإسلامية الأولى ، أن حفظها أولا من التدنس بالمطامع الذاتية ، والتنمر للجماعات التى وقعت تحت سلطانها ، وإنه مكنها ثانيا من دوام الاتصال بروح الوجود وقيومه ، فأيدها من القوى الأدبية بما سمح لها أن تطوى الزمان طيا ، فتبلغ فى سنين معدودة ما لم تبلغ بعضه الأمم إلا فى قرون كثيرة ، لو قلنا ذلك لما كنا مبالغين ، بشهادة الانتقالات الاجتماعية والمدنية الخطيرة التى تمت على أيدي المسلمين فى سنين قليلة .

ثم إن هذه المهمة العالية ، المخولة لهذه الأمة ، تجعلها نزاعة إلى التفوق فى كل فضيلة ، سبابة إلى التحلى بكل خصلة نبيلة ، وهذا يفسر ما اشتهر عن هذه الأمة من سعة الصدر فى معاملة المخالفين ، ورحب الذرع فى حماية المستضعفين ، مما كان أثره فى نشر دينها ، وإحياء لغتها ، ما لا تستطيعه الجيوش الجرارة ، ولا الدعايات القائمة ، على أشد الوسائل الإرهابية . ولئن كان ممّا أدهش المؤرخين أن تظفر أمة ، لم ينقض على تألفها من قبائل شتى أكثر من ربع قرن ، فتنتقل إلى أمة فاتحة ، وتنفض على أمتين كان لهما السلطان المطلق على الأرض ، فتمحو وجود

إحداهما ، وتفت في عضد الأخرى ، فأوجب منه للدهش والحيرة أن تحفظ ما حصلته من الفتوحات قرونا طويلة ، وأن ترفعها عما كانت عليه من الثقافة والمعرفة درجات كثيرة .

كل هذه الانقلابات المحيرة للعقل ، والتطورات الاجتماعية البالغة حدود الإعجاز ، لا يعقل أن تكون حدثت عفواً ؛ فبديهية العقل تقتضى أن يكون لكل معلول علة ؛ وعلل هذه الشئون ، يجب أن تلتبس في مظانها من تركيب جماعة المسلمين ، وفيما أودعه هذا التركيب ، من الروح الحافظ لوجوده ، والمانح لكل حال فيه ما لا بد له منه من النظام الكافل لبقائه وترقيه .

ومن آثار هذا المثل الأعلى ، في الأمة التي تؤمن به ، أنه ينشئ في نفسياتها شعوراً بنوع من القوامة على سائر الأمم ؛ ولا يخفى تأثير هذا الميل في توليد عوامل تدفعها لبلوغ المكانة الأدبية والمادية التي يجب أن يصل إليها صاحب هذه المرتبة في نظر الناس ولكل من هذه العوامل النفسية ، نتائج تدفع إلى العلم والعمل ، وإلى التحلي بالفضائل ، والبعد عن الرذائل ؛ وليس يخفى ما يتنى من الآثار على كل هذه المحاولات الأدبية ، في الأمة الواحدة .

فليس بعجيب ، وقد رأيت ما ذكرناه ، أن تنهض الأمة الإسلامية نهضة لم تحدث لغيرها ممن سبقها أو تلاها من الأمم ؛ وأن جماعة تتحلى بمثل هذه الدوافع النفسية ، وتمتع بهذه الحوافظ الأدبية ، مما أمكننا كشفه ، ولعل ما خفى كان أعظم ، جدير بها أن تبلغ إلى أبعد مدى من الارتقاء البشرى ، وأن تحتفظ بسلامتها بين العوامل المحللة ، وأن تحدث في العالم آثاراً تبقى مظاهرها حية ما بقيت الأرض ومن عليها ^(٥) .

* * *

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ٢٢٢ ، سنة ١٣٦٦ هـ .